رجال في *الشمس*: الرغبات وحدها لا تكفي لمواجهة الحقائق

سيف الدين بشير

باحث، قسم اللغة العربية، كلية مهاراجاس، ايراناكولام

الملخص

تهدف هذا المقالة إلى إبراز الحقائق الخفية التي تجد وراء الحياة المؤلمة للمنفيين الفلسطينيين بعد حرب الإسرائيلي على العرب الذي وقع في عام 1948، ومع ذلك كيف تصورها في الرواية رجال في الشمس لغسان كنفاني، أصبح السعي للحصول على حياة مستدامة بعد الحرب قضية كبيرة أمامهم، الرحلة التي قاموا بها للهروب من هذا الواقع القاسي كانت رائعة حقًا، تصوّر الرواية آلامهم الجسدية والعقلية بطريقة عميقة تخترق ذلك الألم إلى أذهان القراء، من الواضح أنه يركز على الحاجة إلى الدفاع عن ضروراتهم أمرًا حاسمًا بدلاً من الانتظار والانحناء و الخضوع للصمت السلبي، ويدعو المؤلف كنفاني بشكل غير مباشر إلى اتخاذ الإجراءات للدفاع القوي، هذه المقالة تسلط الضوء على الإدراك القاتمة لهذه الشعوب المهمشة وسعيهم لنيل السعادة في حياتهم الفاشلة، وتبين الروابط الأسرية الممزقة وكيف أثر ذلك على قوتهم الجسدي والعقل.

الكلمات الدالة: **حياة المنفى ، الصدمة ، فقدان الإيمان ، الصمت الخاضع ، ضرورة المقاومة**

المقدمة

غزان كنفاني، الكاتب الفلسطيني يمكن أن ينال مكانة لا جدال فيها في الأدب العربي ما بعد الحديث، ولد غسان كنفاني بمدينة عكا في إبريل في عام 1936م، و ولادته في أسرة متوسطة، كانت أسرته تسكن في يافا، وابوه فائز محمد كنفاني محام، كان غسان كنفاني هو ابن الوحيد من أبناء والده الذي ولد في مدينة عكا، التحق بمدرسة الفرير الفرنسية بيافا، عام الثاني من عمره أدخل إلى روضة الأستاذ 'وديع سري' في يافا، وابتدأ بتعلم اللغة الإنكليزية والفرنسية إلى جانب اللغة العربية ثم أدخل إلى مدرسة الفرير واستمر فيها حتى عام 1948م. غادر غسان كنفاني فلسطين عندما كان في الحادية عشرة من عمره، وكان ينتمى إلى عائلة من الطبقة الوسطى، وكان والده محامياً، و درس غسان في مدرسة تبشيرية، وفجأة انهارت هذه العائلة المتوسطة، وأصبحت عائلة غسان كنفاني من لاجئين، فتوقف والده عن العمل ؛ فقد بدأ أن يعمل كي يعول العائلة. ترك غسان كنفاني وراءه للعالم كتابات هائلة على الرغم أنّ حياته قصيرا، يمكن أن تبرز بأدبه السياسات العاجزة للقيادة الفلسطينية والسياسات الشريرة للحكومة الإسرائيلية، ضاعفت هذه القيادة غير الفعالة من معاناة الناس بدلاً من تقليل المصاعب، إن القضية التي تشغل هذه الرواية الفلسطينية هي قضية هامة وأساسية، لا يحتاج أي تفسير، هي قضية الفلسطين، تبرز الرواية *رجال في الشمس* الوجود البغيض للشعب الفلسطيني بعد حرب عام 1948، أصبحت السهولة كلمة نادرة لهؤلاء الأشخاص في مخيمات اللمنفيين الذين يعانون من عبء الفقر الثقيل، دفعت الفقر والفاقة الأشخاص إلى اختيار الطرق الصعوبة للهروب من التعب في حياتهم، غسان كنفاني صوّر هذه الحياة المؤلمة في كتابته الجميع، رجال في الشمس من أبرز الأعمال في هذا المجال. على أثر محاولة انقلابية فاشلة، كتب كنفاني هذه الرواية في أوائل عام 1962، حين اضطر للاختباء في بيروت؛ وقد ترجمت هذه الرواية إلى : الإنجليزية، والفرنسية، والهولندية، والألمانية، والسويدية، والهنغارية، والنرويجية، والتشيكية، وقد حولت هذه الرواية إلى فلم سينمائي أخرجه توفيق صالح بعنوان *المخدوعون*، وقد فاز هذا الفيلم بعدد من الجوائز.

المناقشة

وقصة *رجال في الشمس* هي قصة الشعب الفلسطيني بأكمله، هي قصة القاسى الذل والضياع والحرمان والظلم ضدهم، الفلسطينون هم شعب المكسور الهوية لا يعرفون إلى أين يذهبون في هذه الدنيا الواسعة وكيف يعيشون هنا، لأن القوى الاستعمارية ولم تسلبه أرضه فقط، وإنما سلبته حق الحياة الكريمة منذ النكبة الأولى عام 1948م. الغرابة في العنوان هي أهم ما يشد انتباه القارئ ، فهو يحمل معاني عديدة، والقصة تصوير صادق لقصة المنفي الفلسطيني الذي يصاحب معه من ذل ومرارة وجوع، ويعانى من الغربة وفقدان الهوية، ويسعى من أجل نيل الرزق، من أجل أن تجد لها مكاناً تحت الشمس. انتقى المؤلف شخوصه من المخيمات الواقعية، وقد عبر عن هذا غسان كنفاني نفسه ، حين تحدث عن طرائق تعامله مع رواياته وشخوصها بقوله :" لقد ستوحيت كافة أبطالي من الواقع الذي كان يصدمني بقوة، وليس من الخيال، كما لم أختر أبطالي؛لأسباب فنية أدبية، لقد كانوا جميعهم من المخيم، وليس من خارجه".

يأتي كنفاني بأربع شخصيات رمزية ليكشف عن المراحل الأربع للشعب في فلسطين. هم المزارع العجوز أبو قيس، والشاب أسد، والصغير مروان، وسائق الشاحنة أبو قيسوران، جميع من هذه الشخصيات هم المنفيون من بلادهم الأصلي الفلسطين، وهم يعيشون في الخيام في بيروت، فكانت حياتهم في مخيمات اللجوء مريرة، وليس هناك ماء، ولا طعام، ولا عمل، ولا بطاقة هوية، أو جواز سفر، هذه هي دفعهم إلى مغادرة المخيم؛ و كان مغادرتهم للبحث عن السعادة في الوطن الغريب، التقى الثلاثة في البصرة، للسفر إلى الكويت عن طريق التهريب. صور المؤلف في هذه الرواية حوادث عديدة، ولكن هذه الحوادث كانت مقتطفة من تجراب حقيقة، وهي معاناة الشعب الفلطسيني في الشتات.

استطاع الكاتب تصوير حقيقة المعاناة المنفيين من خلال سرد النص، نرى أبى قيس، هو رجل عجوز، الموت أفضل من حياته، يحتاج له من بعض المال، حين تأتيه فكرة السفر إلى الكويت لجمع الثروة، يدور بينه وبين زوجه الحوار التالى:

- ماذا تريدين يا أم قيس؟

حدقت إليه وهمست:

- كما ترى أنت..

- سيكون بوسعنا أن نعلم قيساً...

- نعم.

- وقد نشترى عرق زيتون أو اثنين..

- طبعاً!

- وربما نبنى غرفة في مكان ما..

- أجل.

- إذا وصلت.. إذا وصلت..

كف، ونظر إليها.. لقد عرف أنها سوف تبكي. سترتجف شفتها السفلى قليلا ثم ستنساب دمعة واحدة تكبر رويدا رويدا ثم تنزلق فوق خذها المغضن الأسمر.. حاول أن يقول شيئا، ولكنه لم يستطع،..." يظهر هذا الحوار المتوترعن هموم الإنسان الضعيف، ويكشف عن دوافع اضطرام مأساته. ونرى أن كلماته دليل لحياته القاسي في المنفى.

تحطمت حياة اللاجئين و المنفيين بعد أن تركوا منازلهم وراءهم. لم تكن الخيام مريحة لهم. لقد كانوا بشرًا يتنفسون بسهولة مثل أي شعب آخر. لكن كل شيء تحطم في بضع أيام حيث دمرته الحرب بالكامل. وهكذا بدأ الألم والصراع في حياتهم. وأخيرا وهم يقررون أن يهجر إلى الكويت لنيل السعادة لهم ولأسرتهم، أصبح أرض الكويت أرضًا يولد الآمال القوية أمامهم.

"وراء هذا الشط ، وراءه فقط، توجد كل الأشياء التي حرمها، هناك الكويت.. الشيء الذي لم يعش في ذهنه إلا مثل الحلم والتصور يوجد هناك.. لا بد أنها شيء موجود، من حجر وتراب وماء وسماء، وليست مثلما تهوم في رأسه المكدود.. لا بد أن ثمة أزقة وشوارع ورجالا ونساء وصغارا يركضون بين الأشجار..."

كما قلنا من قبل، القصة وشخصياتها تجسيد حقيقة الحياة الفلسطينية. على الرغم أن لهم رغبة هوادة في الهروب من الظروف البائسة ، إلا أنهم يفشلون في اتخاذ القرارات في اللحظات الحاسمة. نتيجة لذلك ، تموت الشخصيات الثلاثة في نهاية الرواية. الجزء المؤلم هو أنهم لم يتمكنوا حتى من محاولة إنقاذ أنفسهم من الموت. صوت السائق 'لماذا لا تدقوا على الجدران الخزان؟' لا يردد أصداء محنة ثلاث شخصيات فحسب ، بل يشير إلى إرهاق وعجز الشعب الفلسطيني أمام الأنظمة الفوضوية. إذا طرقوا الجدران ، ستكون النتيجة أفضل من الموت. أبو خيزوران ، السائق ، يمثل زعماء سياسيين ضعفاء وعاجزين في فلسطين. ومع ذلك ، فهو لا يفكر في مسؤوليته ولكنه يلوم الموتى على عدم طرق على الجدران. إن مسؤولية القائد في ضمان الوعي إلى هؤلاء الأشخاص الذين غير المدركين العالم الخارجي .

خاتمة

هذه هي قصة واقعية ، استطاع الكاتب أن يجمع بين الاتجاهات الفنية: الواقعية، والرومانسية والرمزيـة، وإن كانت الغلبة للاتجاه الواقعي. إن الرواية تشير إلى مكانة غسان كنفاني في مجال المقاومة الفلسطينة ضد الصهيونية

المراجع والمصادر

1- رجال في الشمس – حضور النص وغيابه – مركز القطان للبحث والتطور التربـوي – رام الله – فلسطين – ط1 – 2002.

2 - رجال في الشمس – غسان كنفاني – مؤسسة غسان كنفاني الثقافيـة - بيـروت – ط19863 -م.

3- غسان كنفاني إنساناً وأديباً ومناضلاً – د. إحسان عباس، وفضل النقيب، وإلياس خوري – بيروت – ط1 – 1974م.